« الخروج من مدينة الرماد »
فخري صالح

تتطور الكتابة الشعرية في الأردن وفي مجال سنوات السبعين، ضمن دائرة محاكاة حركة تطور الشعر العربي في تقاطعاته التاريخية، وضمن دائرة أخرى تمتد لتشمل المفاهيم المطروحة حول الشعر كجنس أدبي يأخذ مجاله في عملية الكتابة من تفاعل حركة الواقع مع حركة الشعر، من تفاعل ما هو خارج الشاعر بما هو داخله، أي تفاعل همّ الشاعر الخاص مع همّه الجماهيري.

من هنا فإن قصائد الشاعر يوسف عبد العزيز في ديوانه « الخروج من مدينة الرماد » تشكل حالة الشاعر الفلسطيني في خضم شعر السبعينات، والذي ترسم تطلعاته في قصيدته أفقاً جديداً للكتابة الشعرية تفترق من خلال تطور لغتها الشعرية.. فهو يمتلك لغته الشعرية الخاصة، وترسم قصيدته الشعرية أفق تطورها من خلال تفاعلها مع واقعها. إن قصيدته تطرح مفهومها الذي يتوافق مع طرح القصيدة العربية الحديثة في فترة السبعينات، لأن تجربته الشعرية قد أبتدأت حضورها في هذه الفترة، وهي أيضاً تمتلك أدواتها ومفاهيمها خارجة من رحم الفترة التاريخية الحرجة التي لونت قصائد هذه المجموعة الشعرية بريشتها.

أ- تبدأ هذه القصائد من واقع الانفجارات، والتشظي التي تعيشه الجماهير العربية بعد حرب ١٩٦٧.. إذ أنها تستبصر واقعها الدموي خلال هذه الفترة، فينعكس واقع المأساة، وواقع الصدمة التي تعيشها هذه الجماهير داخل وعي القصيدة.. أي أن القصيدة تستلهم موضوعتها من جوهر التحولات الذي طرأ على الإنسان العربي بعد حرب حزيران، فتصور واقع الإنسان العربي المأزوم، من خلال أفق القصيدة الحديثة.

ب- تعكس القصيدة رؤيتها الدامية لواقع مضطرم.. فالقصيدة تناقض الواقع رغم أنها ترسمه.. فهي تنكتب من خلال رؤية تنفعل بالواقع انفعالاً يطمح إلى الإدانة وإلى التغيير في ذات الآن.

ج- يتوفق الشكل الشعري في استلهام بنية القصيدة الغنائية التي تطرح رؤية شعرية تأخذ تفاصيلها من اليومي والمتكرر، لتصل إلى عموم الحالة الشعرية، فهي تبني من لغة التفاصيل ولغة واقعها اليومي قصيدة تُماسك بين الهم العام والهم الخاص للكتابة الشعرية.

إنطلاقاً من هذا الفهم لقصائد الديوان فإن الكتابة الشعرية عند يوسف عبد العزيز تنبثق من نبض واقعها الذي تحياه، من عالم المخيم وواقع الإنسان الفلسطيني الذي يحيا في منفاه الاضطراري، محركاً حركة القصيدة في إطار تجربته الخاصة، وتداخلات واقع القصيدة الفلسطينية مع واقع القصيدة العربية الحديثة في السبعينات. فالقصيدة تنهج سبيل الكشف والتعرية لواقع الحال الذي تعيشه، فتوائم بين فهمها الأيديولوجي وفهمها الشعري، لكي تلغي الفرق الحاصل في الكتابة الشعرية بين ما هو إيديولوجي وبين ما هو شعري. إن استنطاق لغة الواقع هو الذي يلغي الفرق، ويُماسك حركة القصيدة العربية الحديثة.

أي صفصافة حضنت آخرَ الأنبياء؟
- صغيرتنا (الناصرة)
هل تعود الخطى للمخيّم؟ متعبةٌ أنت
- لا أتعب الشرطةُ المخبرون انتهى عهدهم
وتفتحت حلمين في صوتها.
... ثم حدقت في وجهها الساحلي فجاءت طيور
ولامست الماءَ، جاءَ سحابٌ سحابٌ وأبرق
عانقتها وسط.. عمّان..كان الرصاص يفورُ من
الجسد الغضِّ كانت تخلفني في المكانْ
قمراً ودخانْ.

قصيدة « في انتظار سيدة الفرح » ص: ٨٥ - ٨٦.

إن القصيدة تقوم بعملية الكشف والتعرية، وتداخل مفهومها للواقع مع رؤية الواقع المصطبغة بالسواد، لتفجر بذلك جوهر التناقض الذي يعيه الشاعر، من خلال احتكاكه اليومي مع لغة الأحداث.. فالأحداث تستحيل هنا إلى مثيرٍ واقعي للكتابة، ولا تشكل حالة واقعة، تنكتب القصيدة لتصورها، بل لتحرض على تغييرها. والقصيدة بذلك لا تقوم بعملية تفسير للتاريخ، ولكنها تداخل يوتوبياها الشعرية مع جوهر الرؤية الواقعية التي تتسلح بها القصيدة العربية الحديثة.

وهذا ما تتلمسه قصائد يوسف عبد العزيز في هذا

الديوان، الذي تتغلب يوتوبياه الشعرية على جوهر رؤية الواقع لديه، أي أن بصيص الأمل يضيء لديه القصيدة، فيمحو ضباب الواقع ويفجر رؤية المستقبل. فهو من خلال لغة استفهامية، تطرح تساؤلاتها، يحاول رسم واقع الثورة منعكسة على بنية القصيدة.. فهو لا يجيب،. ولكن القصيدة، تشير وتدلل من استبصارها لواقع اللحظة التاريخية التي ترسمها.

دمي والنهر يلتقيان،
والفرح الذي يمتد من عينيّ لا ينهارُ،
هذي جبهتي قمرٌ،
على الوديان أُشعِلُهُ،
وهذي طلقتي في الصمت أغرِزُها
وبحري دائم الهيجانْ،
وهذا الليل، هذا الليلُ
لا يعني انتهاء البحرِ،
لا يعني رحيلَ الفجرِ،

قصيدة - أقول الحزن قنبلتي.. ص: ١٣ - ١٤

الوطن أولاً، الوطن ثانياً، الوطن للأبد:

تأخذ موضوعة الوطن، وموقع الشاعر، كشاعر فلسطيني يعيش في المنفى، حيز الديوان جميعه.. فالقصائد تداخل بين الوطن الفلسطيني كقضية، هي همّ الجماهير العربية، وبين وعيه الخاص لقضية فلسطين، بوصفها أيضاً مُضاعة أفتقدها الشاعر ففجرت غربته وأنتجت وعيه الاغترابي، الذي يسلكه في عداد الشعراء الفلسطينيين الذين يعيشون منفاهم، منفى الوطن، ومنفى التناقضات.

إن المنفى يفجر اغتراباً جديداً يعيشه الشاعر الفلسطيني.. فالشاعر يائس، ومتفائل- في آن معاً.. فتناقضات الحالات اليومية التي تنعكس على واقع السياسة العربية، تطبع شعره بتناقضات أحدّ على مستوى التناول الشعري، فانتاؤه ينتفي، وتضيع الملامح الواقعية، عن أدب يتحدث عن واقعه، ولا ينقذه من هذا المأزق الذي تعيشه قصيدة السبعينات إلاّ التحافه بحرارة الوطن، ليشكل الوطن جوهر القصيدة ورؤيتها الحادة الخاضعة، لواقع هروبي تحياه وتحاول رأب صدعه. فالقصيدة تنتمي لأرضها، وتنبثق من جغرافية المكان الفلسطيني.. إنها تحضر المكان الغائب لتلقيه في منفاها.. أي أنها تستدفيء بجغرافية فلسطين، فتلتحف سماء فلسطين وتفترش سهولها وجبالها. إن هذه الاستضاءة بالمكان تثبت أن الشاعر الفلسطيني لا يذوّب، ومن الصعب محو هويته، وأن حركة الشعر الفلسطيني خارج أرضها لا تحيا بعيداً عن واقع قضيتها المصيرية، بل تستنطق هذه القصيدة واقع التشريد، وواقع الهجرات الفلسطينية المتتالية، واقع التشظي والدمار اليومي.

هذه لغتي فافهموها،
هذه طلقتي فاسمعوها،
إنني أستعيرُ انتمائي مِنَ الصخرِ
والعشبِ، من جبلٍ صلبوه ومن غابةٍ
أحرقوها،

قصيدة: «الوطن أولاً، الوطن ثانياً، الوطنْ للأبد» ص: ٤٠.

وهكذا فإن القصيدة تبتدىء تاريخها من واقع المقاومة، وزمن النضال ضد الحركة الصهيونية.. وهي تزاوج بين الإنسان الفلسطيني ورديفه الإنسان العربي، كون القضية الفلسطينية هي الهم العام الذي تلتف حوله الجماهير العربية.. فهي لا تفصل رؤيتها الوطنية عن رؤية الجماهير العربية، بل تؤكد ابتداء التاريخ العربية من واقع النضال.

أوّلُ الزمن العربي دماءٌ على صدر «بسيانَ»
آخره قمرٌ في جدائل «يافا»
عروس البحارْ.

ومن هنا فإن القصيدة تفجر حركة التناقضات داخلها.. فالواقع الذي تعيشه والذي يُناقض رؤيتها، يضبب مقولتها وطرحها، فيسربلها بالذهول.. إنه واقع الصلب والقتل والتشريد، والواقع العربي بعد الهزيمة.

وامتدت الموجة الطاغية
خشب الصَلب يمتدُ،
شيخُ القبيلة يرتدُّ،
والكل ممتلىء بالذهولْ.

لهذا فإن فعل القصيدة ينتفي ويصبح الشعر بلا جدوى، من موقع الكتابة الشعرية التي تقارب حالتها ولا تنغرس في لحظة نضال جماهيرها.. فالكتابة الشعرية تنبثق من هنا، من تحسسها لقضيتها ومسألتها المركزية التي تتضايف مع هموم المواطن العربي وحالاته.

أرسمُ الفجرَ لا أكتب الشعرَ
علمّني الوقت أن أزدري الكلماتْ

إن هذه القصائد المشبعة برائحة الوطن، والمكرسة لقضيتها ومسألتها الوطنية، ترسم أفق البدء لشاعر شاب متميز في قصائده.. فبنية قصائده تتماسك وتشكل تفردها داخل حركة شعر السبعينات في الأردن. وإن كانت هذه المجموعة هي الأولى، فإن قصائد يوسف عبد العزيز تمتلك لحظتها الشعرية، وتستطيع تأكيد مناخاتها الخاصة، التي تمايز هذا الشاعر الشاب عن غيرها من شعراء المرحلة العالية.

عمان (الأردن)